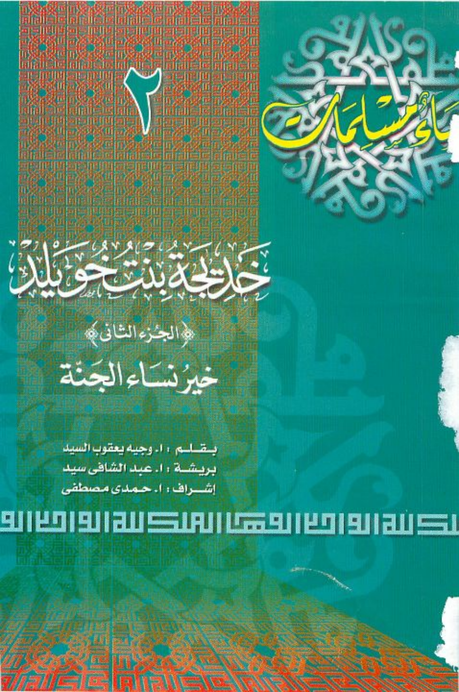


نساء مسلمات
٢
خديجة بنت خويلد
الجزء الثانى
خير نساء الجنة
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

مـا إنْ بلغَ محمـدٌ ﷺ الأربعين ، حتَّى ألفَ الخَلْوَةَ ، فكانَ يذهبُ إلى غارِ حراءَ يتعبَّدُ ويتأمَّلُ فى عجائب الكون ، وكانتْ زوجتُهُ (خديجةُ) تُهيِّئُ له الأجواءَ المناسبةَ لذلك ، فكانتْ تحوطُهُ بالرعايةِ والهدوءِ وهو فى البيت ، فإذا انطلقَ إلى غارِ حراءَ ، دعتْ له بالخيرِ ، وظلَّتْ عيناها عليه من بعيد ، ولا تكتفى بذلك بل كانتْ تُرسِلُ خلفَ زوجِها مَنْ يَحْرُسُهُ ويرعاهُ ، وكانتْ تخرجُ بنفسها إليه ومعها غذاؤُهُ وما يحتاجُ إليه .

وفى يومٍ سعيد ، نزلَ الوحيُ على محمدٍ ﷺ ، ولم يكن هذا الحدثُ سهلاً على نفسه ، فقدْ عادَ إلى بيته خائفًا ، وظلَّ قلبُهُ يرتجفُ ، وأسرعتْ (خديجةُ) نحوهُ ، تُهدِّئُ من رَوْعِهِ وتقولُ له :

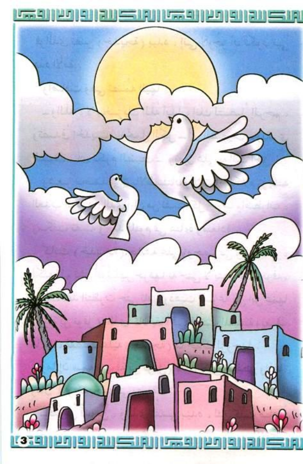
ـ ما بكَ يا محمدُ ؟ هلْ أصابكَ مكروهٌ ؟

فقصَّ عليها النبيُّ ﷺ ما حدثَ ومُخاطبةَ الملكِ له ثُمَّ قالَ :

ـ لقدْ خشيتُ على نفسى !

لكنَّ (خديجةَ) قالتْ فى يقينٍ واطْمئنان :

ـ اللَّهُ يرعانا يا (أبا القاسم) ، أَبْشِرْ يا بنَ عمٍّ واثبتْ ،



فَوالَّذى نَفْسُ (خديجةَ) بيده ، إنّى لأرجُو أن تكونَ نبيَّ هذه الأُمَّة .

وأضافتْ وهى تضمُّهُ إليها :

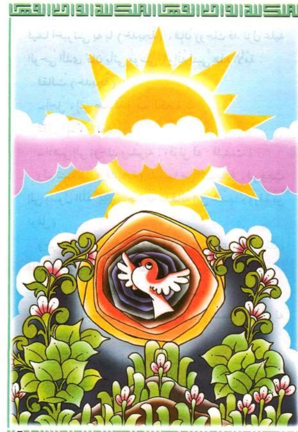
ـ واللّه ، لا يُخزيكَ اللّهُ أبداً ، إنك لتصلُ الرحمَ ، وتصدقُ الحديثَ ، وتحملُ الكَلَّ ـ أى الضعيفَ ـ وتُقرى الضيفَ ـ أى تُكرمُ الضيفَ ـ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ !

وشعرَ محمدٌ ﷺ بالاطمئنانِ والارتياحِ لكلامِ زوجتِه العذْبِ الودودِ ، الذى أزالَ من نفسه كلَّ خوفٍ واضطرابٍ ، وسكنتْ نفسُهُ وخَلَدَ للنومِ فى هناءةٍ وسعادةٍ .

كانتْ (خديجةُ) خائفةً على زوجِها فى واقعِ الأمرِ ، لكنها لم تشأْ أنْ تُظهرَ خوفَها له حتَّى لا يتضاعفَ خوفُهُ ، ولذلكَ فقد انتظرتْ حتَّى نامَ ، وذهبتْ مسرعةً إلى ابنِ عمِّها (ورقةَ بْنِ نَوْفَلٍ) الذى كانَ يقرأُ فى الكُتبِ المقدَّسةِ ويعرفُ ما بها ، فقصَّتْ عليه (خديجةُ) ما حدثَ لزوجِها .

وما إنْ سمعَ (ورقةُ بْنُ نَوْفَلٍ) ذلك حتَّى انتفضَ واقفًا ، وقالَ لـ (خديجةَ) فى بهجةٍ :

ـ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ، والَّذى نفسى بيدِهِ ، لئِنْ كنتِ صادقةً



فيما أخبرتني به يا (خديجةُ) ، فإنَّ زوجَك قد نزل عليه الوحيُ الَّذي كانَ يأتي مُوسى ، وإنَّهُ لنبيُّ هذه الأُمَّة .

فقالتْ (خديجةُ) :

ـ أجلْ ، إني صادقةٌ وربِّ الكعبة .

فقالَ لها (ورقةُ) :

ـ اذهبي إلى زوجِك وبشِّريه ، وقولي له : فليثبتْ !

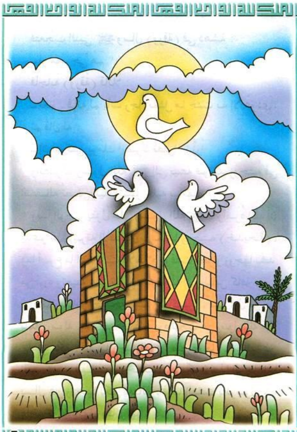
ولم تتمالكْ (خديجةُ) نفسَها منَ السعادة ، فرجَعَتْ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ وأخبرتْهُ بما قالَهُ ابنُ عمِّها (ورقةُ بْنُ نوْفَلٍ) .

وخرجَ الرسولُ ﷺ يطوفُ بالكعبة تعبيراً عنْ شُكرِه لِلَّه، فَلَقِيَهُ هناكَ (ورقةُ بْنُ نَوْفَلٍ) ، فحيَّاهُ وسألَهُ :

ـ يا بنَ أخي ، أخبرني بما رأيتَ وسمعتَ .

فأخبره الرسولُ ﷺ بخَبَرِ ما رأى وسَمِعَ ، فقالَ له (ورقةُ) :

ـ هذا الناموسُ ـ أي الوحي ـ الذي نزل على موسى عليه السلام ، يا ليتني أكونُ حيـاً إذْ يُكذِّبُك قومُك ويؤْذُونَك ويُخْرِجُونَكَ .

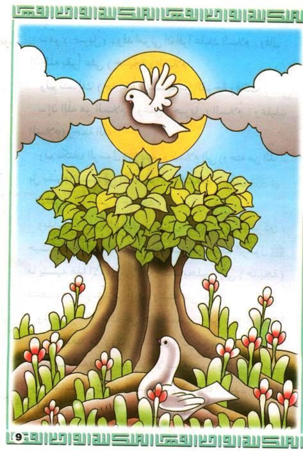


فتعجَّبَ النبيُّ ﷺ وسألَ (ورقةَ) في دَهْشةٍ :
ـ أو مُخرجيَّ هُمْ ؟
فأجابَهُ (ورقةُ) قائلاً :
ـ نعمْ . فإنه لم يأتِ رجلٌ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُودِيَ.
ثمَّ قالَ له :
ـ إنْ أدركَني يومُكَ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً .

وانصرفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى بيتِه فوجدَ زوجتَه في استقباله تُصْغي إليه وتُشيرُ عليه برأيِها .

وبدأ الوحيُ ينزلُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأمرَهُ اللَّهُ أنْ يَدْعُوَ عشيرتَهُ الأقْربينَ ، فدعَا زوجتَهُ (خديجةَ) ، وما أسرعَ ما استجابتْ للإسلام ووقفتْ بجوارِ زوجِها تشدُّ من أزْرِه وتُعينُه على تبليغ دعوة اللَّهِ إلى الناسِ كافَّةً .

كانتْ مكانةُ (خديجةَ) عند اللَّهِ كبيرةً ، فهي أولُ مَنْ آمنَ باللَّه ورسُوله ، فقدْ خرجتْ ذاتَ يومٍ تبحثُ عن رسول اللَّه ﷺ بأعْلى مكَّةَ ، فلَقيها (جبْريل) في صُورة رجلٍ ، فسألها عن النبيِّ ﷺ ، فهابتْه ، وخشيتْ أن يكونَ هذا الرجلُ إنما يسألُ عن زوجها لكيْ يغتالَهُ ، فلمَّا التقتْ بالرسول ﷺ وأخبرتْه طمأنَها ، وقالَ لها :



-هُوَ (جبريلُ) ، وقدْ أمرنى أنْ أقرأَ عليكِ السلامَ ، وقالَ : إنَّ اللَّهَ يقرأُ على (خديجةَ) السلامَ .

ولم تتمالكْ (خديجةُ) نفسَها من الفرحة وقالتْ :

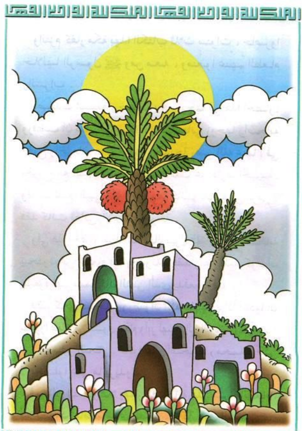
-إنَّ اللَّهَ هو السلامُ ، وعلى (جبريلَ) السلامُ ، وعليكَ السلامُ ورحمةُ اللَّهِ !

ولم يكتفِ الرسولُ ﷺ بتبليغ السلام إلى زوجتِهِ منَ اللَّهِ ، بلْ بشَّرها ببيْتٍ فى الجنة جزاءَ ما صنعتْ ، وقالَ ﷺ :

-أُمرتُ أنْ أُبشِّرَ (خديجةَ) ببيتٍ فى الجنة .

وبدأت المواجهةُ الصعبةُ بينَ رسول اللَّه ﷺ وبينَ المشركينَ ، حيثُ كذَّبوهُ وآذَوْهُ وأسمعُوه مايُغْضِبُهُ ، ولم يجد الرسولُ ﷺ ما يُنسيه هذا الأذَى ، إلا حينَ كانَ يجلسُ إلى (خديجةَ) فتقفُ بجواره وتشدُّ من أزرِه ، وتُثبِّتُه على موقفه .

ولما عجزَ أهلُ مكَّةَ عن ردِّ محمد ﷺ عنْ دعوته اتَّفقُوا على مُقاطعتَه هو و(بنى هاشم) وكلَّ منْ آمنَ به ، فكتبُوا بذلكَ كتابًا تعاقدُوا فيه على ألاَّ يُبايعُوهُمْ ، ولا يدعُوا سببًا من أسبابِ الرِّزْق يصلُ إليهم ، ولا يَقْبلُوا منهم صُلْحًا ، ولا تَأْخُذَهُمْ بهِمْ رأْفةٌ .



والتزمَ كفارُ مكَّةَ بهذا الكتاب ثلاثَ سنوات ، حاصروا خلالَهـا الرسـولَ ﷺ ومَنْ معـه ، ومنعُوا عنهمُ الطعـامَ والشرابَ .

وصمدت السيدةُ (خديجةُ) مع زوجها في هذا الحصار، ورفضتْ أنْ تَبْقَى في بيتها ، بينما يُعاني زوجُها وأصحابُهُ الجوعَ والحرمانَ ، ولم تترددْ (خديجةُ رضِيَ اللَّهُ عنها) في الخروجِ معَ النبيِّ ﷺ ، وهكذا تخلَّتْ عن دارِها الحبيبةِ، وقامتْ تتبعُ النبيَّ ﷺ ، برغمِ ما كانتْ تُعانيه من مرضٍ ، فقد كانتْ تعاني آلامَ الشيخوخة .

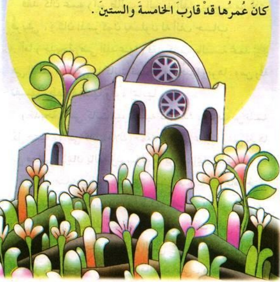
وفى هذا الحصار اشتدَّ البلاءُ بالرسول ﷺ ، وكانَ الصحابةُ يبحثُونَ عن الطعامِ فلا يجدونَهُ ، فقدْ رفضَ المشركونَ أنْ يبيعُوهُ لهمْ مهما كانَ الثمنُ الَّذي يدفعُونَهُ فيه .

فقدْ كانَ الصحابةُ (رضوانُ اللَّهِ عليهمْ) إذا أرادُوا أنْ يَشتروا طعامًا من السُّوقِ ، قامَ (أبو لهبٍ) إلى التجار ، وقالَ لهمْ :

ـ يامعشرَ التجارِ ، غالُوا على أصحابِ (محمدٍ) حتَّى لا يَحْصُلُوا على ما يُريدونَ .

فيُغالى التجارُ فلا يقدرُ الصحابةُ على شراءِ الطعامِ، فلا يجدونَ أمامهم سوى الصبرِ ، وأكلِ ورقِ الشجرِ .

وبَقيتْ (خديجةُ رَضىَ اللَّهُ عنها) فى الحصارِ ، صابرةً مع زوجها النبىِّ ﷺ ، ومحتملةً لهذا الحصارِ الظالمِ الذى أنهكَ قُواهَا ، ولم ترجعْ إلى بيتِها إلا بعد أنْ تهاوىَ هذا الحصارُ أمامَ ذلك الإيمانِ الصادقِ ، وكانتْ طوالَ زمنِ الحصارِ نعمَ الزوجةِ الصابرةِ المحتسبةِ ، التى احتملتْ فوقَ طاقتِها ، فقدْ كانَ عُمرُها قدْ قاربَ الخامسةَ والستينَ .



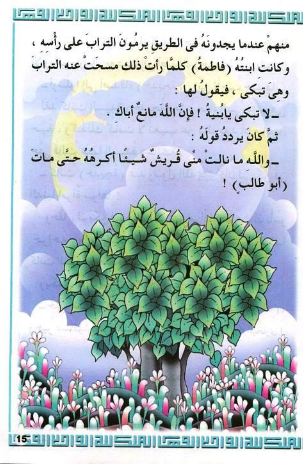
وبعد أنْ رَجَعَ محمدٌ ﷺ من الشِّعب بعدَ أن انتهى الحصارُ الظالمُ ، لم تمضِ إلا شُهورٌ قليلةٌ حتَّى أصابتْهُ فى عامٍ واحد فاجعتان ، كلٌّ واحدة أكبرُ من الأُخرَى ، فقدْ ماتَ عَمُّهُ (أبو طالب) ومِنْ بعدِه زوجتُهُ (خديجةُ) ، فتأثَّر رسولُ اللَّه ﷺ لموتهما تأثُّراً شَديداً .

فقد كانَ عمُّهُ (أبُو طالبٍ) السندَ الَّذى يحميه من أذَى قُريشٍ ، وكانَ المشركونَ يعملونَ له ألْفَ حساب .

أمَّا (خديجةُ رضىَ اللَّهُ عنها) فقد كانتْ بالنسبة لمحمد ﷺ هِىَ السندَ الحقيقىَّ بما كانتْ تَمنَحُهُ منْ حُبِّها وبرِّها ، ومن رقَّة نفْسها وطهارةِ قلْبها وقوَّةِ إيمانها .

(خديجةُ) التى كانتْ تُهوِّنُ عليه كلَّ شدَّةٍ ، وتُزيلُ مِنْ نفسه كلَّ خَشْيَةٍ ، والتى كانتْ مَلاكَ رَحْمَةٍ ، يرَى فى عيْنيها وعلى ثَغرِها مِنْ معانى الإيمان باللَّه وبرسُوله ما يَزيدُهُ إيماناً بنفسه .

وبلغتْ متاعبُ الرسول ﷺ أقسى مداها فى عام الحزن الذى ماتتْ فيه (خديجةُ) ، ومِن قبلِها مات عمُّهُ (أبُو طالب) ، وظنَّ المشركُونَ أنَّ الفرصةَ قد لاحتْ لهم بموت (أبى طالب) و(خديجة) ، فأخذُوا يُؤذُونَ النبيَّ ﷺ ، فقدِ اجْترأ عليه الكفارُ ، فأسمعوُهُ منَ الكلامِ ما لا يُرضى ، وكانَ السفهاءُ



منهمْ عندما يجدونَهُ فى الطريق يرمُونَ الترابَ على رأْسه ،
وكانت ابنتُهُ (فاطمةُ) كلمَّا رأتْ ذلكَ مسحَتْ عنه الترابَ
وهِيَ تبكى ، فيقولُ لها :

ـ لا تبكى يابُنية ! فإنَّ اللَّهَ مانعٌ أباك .

ثمَّ كانَ يرددُ قولَهُ :

ـ واللَّه ما نالتْ منِّى قُريشٌ شيئًا أكرهُهُ حتَّى ماتَ (أبو طالبٍ) !

وظلَّ الرسولُ ﷺ وفيًا لذكرى زوجته ، فكانَ لايذبحُ شاةً إلا ويأْمرُ بإرسال بعضِها إلى أصدقاء (خديجةَ) ، ويقولُ :

ـ أرسلُوا إلى أصدقاءِ (خديجةَ) ، إنِّي لأُحبُّ حبيبَها .

لقدْ كانت السيدةُ (خديجةُ) ملءَ حياة النبيِّ ﷺ وهي حيَّةٌ ، وكذلك كانتْ لا تغيبُ عن بالِه بعدَ أن ماتتْ، حتَّى قالتْ عنها السيدةُ (عائشةُ) :

ـ كانتْ (خديجةُ) عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ كأنْ لم يَكُنْ في الدنيا امرأةٌ سواها !

وحقًّا ، لم يكنْ في حياة النبيِّ ﷺ امرأةٌ استطاعتْ أنْ تأسُوَ جراحَهُ ، وأنْ تهيِّئَ له الأجواءَ المناسبةَ للدعوة، مثلما كانت السيدةُ (خديجةُ بنتُ خويلد رضِيَ اللَّهُ عنها) .

ويَكْفِي أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ أكثرَمِنْ مرَّة :

ـ خَيرُ نسائِها ـ أي الجنة ـ (خديجةُ بنتُ خويلدٍ) ، وخيرُ نسائِها (مريمُ بنتُ عمرانَ) . [رواه البخاري]

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم
سودة بنت زمعة

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٩٣٥